السبعي، مسار حياة جهادية (1825-1916م)

عبد الله تزلي
الثانوية المرجعية - مكناس

تزامنت فترة حكم المولى عبد الحفيظ (1908–1912) مع تأجج حركة المقاومة التي شهدتها منطقة الجنوب الشرقي والتي استهدفت قطع الطريق أمام قوات الاحتلال الفرنسية التي دأبت على اجتياح واحات مغربية منذ أواخر القرن التاسع عشر انطلاقاً من القطر الجزائري.

وفي خضم استفحال مشروع الغزو الاستعماري للأراضي المتاخمة للجزائر مع مطلع القرن العشرين، وازدياد تعقد أوضاع البلاد في ظل التطورات الدولية المتسارعة التي لم يكن المغرب قادراً على مجاراتها، وأمام عجز السلطان عبد الحفيظ عن الوفاء بالتزامه بشروط عقد بيعة الجهاد، استشعرت قبائل المنطقة خطورة التدخل الأجنبي، وتعالت في أوساطها دعوات الجهاد رفع مشعلها زعامات محلية أمثال مولاي أحمد ولحسن السبعي الذي كرس حياته للتصدي لجيوش الاحتلال منذ أن بدت طلائعها تتراءى في أفق شرق واحات وادي كَير وهي تتقدم في استراتيجية التفافية حول منبسط تافيلالت وبحركات معدودة الخطوات.

فما هي خصوصيات شخصية السبعي والتي جعلته محل إجماع قبائل الجنوب الشرقي ؟ وهل كان للسبعي من المؤهلات ما جعله يقود إحدى أهم الحملات الجهادية التي دوخت المستعمر الفرنسي حيناً من الدهر ؟ وإلى أي حد حقق السبعي مشروعه الجهادي الطموح في ظل وضع محلي ووطني وخارجي لا يسعف على ذلك ؟

• **حياة السبعي :**



المجاهد مولاي أحمد أبو لحسن السبعي

* تشير المصادر التاريخية التي تمكننا من مراجعتها إلى أن السبعي ينحدر من قبيلة آيت سغروشن، وتورد إشارات تجمع أنه تربى في بيئة إسلامية، وترعرع في وسط صوفي، مما أهله لحفظ القرآن وتعلم اللغة العربية وقواعدها، إلى جانب تفقهه في الدين على يد أشياخ أمثال أحمد المرنيسي بفاس والذين لازمهم ردحاً من الزمن قارب نصف القرن.

وفي روايات وكتب تاريخية، وردت عنه إشارات تبرز أنه قصير القامة، أشقر اللون على صفة الأمازيغ، كثير الركوب لبغلة قصيرة خلال حملات الجهاد التي قادها. كما تتفق الكثير من المصادر حول أصله وتسميته ونسبه ودراسته وجهاده حيث أجمعت على أنه أحمد بن محمد بن الحسن، الفقيه العالم، الشهير باسم السبعي اختصاراً والمنتهي نسبه إلى جده محمد السبع الحسني الإدريسي والمنحدر من آل مولاي علي بن عَمْرو ذو القبرين، بغزوان وتَمَسَلْمَتْ ببلاد آيت بو مريم إحدى فصائل آيت سغروشن[1].

استمد السبعي نسبه الشريف من أولاد سيدي امحمّد، الذين يشكلون مجموعة من الشرفاء الأدارسة بالوداغير من قصور واحات فكَيك[2].

أما مصدر تسميته بالسبعي، فترتبط باسم جده «محمد السبع» وبانتمائه إلى قبيلة آيت عيسى إزم، إحدى فصائل آيت سغروشن.

صورة السبعي مأخوذة من كتاب **الكفاح المغربي المسلح في حلقات للمعزوزي والعابدي**، مطبعة الأنباء، الرباط، 1987، ص. 17.

(1) مراجع في الوضوع :
– محمد المختار السوسي، **المعسول**، ج 1، ص. 264، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، 1961.
– المنوني محمد، **مظاهر يقظة المغرب الحديث**، ج2، ص. 486، الدار البيضاء، 1985.

(2) Lacroix (N.), *Les Derkaoua d'hier et d'aujourd'hui, essai historique, Alger*, 1902, p.22

كانت ولادة السبعي بصفرو في تاريخ غير محدد[3]. إلا أن الجنرال بايود، الذي احتك به في معركة بوذنيب لعام 1908، قدر عمره بـ 80 سنة وقتها، مما يرجع ولادته إلى 1828[4]. لكن مرجعا مغربيا، يجعلها في سنة 1241 هـ موافق 1825 م[5].

وقد مكنه نهله من حياض العلوم الإسلامية والعربية من إنتاج مؤلفات[6] في موضوعات شتى، بعد طول فترة قضى خلالها طفولته وشبابه بفاس في التحصيل والدرس على يد مشاييخ زمانه المغمورين.

وبمجرد تخرجه فقيهاً عالماً، اتجه إلى واحة مدغرة زيز حيث انقطع لتحصيل علم التصوف على يد شيخ الطريقة الدرقاوية بقصر كَاوز– سيدي محمد العربي المدغري–[7]. وظل ملازماً لشيخه لحين وفاته سنة 1892 مما جعله يتفوق في المعارف الصوفية[8]. ومن ثم اضطر للاستقرار بأعلى وادي آيت عيسى حيث أسس زاوية له حملت اسمه– دويرة السبع– وبها بذل كل الجهد لتكون زاويته هذه بديلا للزاوية الكَاوزية. بل تطلع إلى أن تضطلع بدور ريادي في الجهاد كما كان الأمر زمن شيخه الدرقاوي.

وفي أفق استكمال شهرة الزاوية السبعية، اشتد حرصه على جعلها قبلة عابري سبيل المنطقة بعد أن وفق لأداء مناسك الحج فيما بين سنتي 1894 و1895.

---

(3) المنوني، ن.م.

(4) Lacroix (N.), Les Derkaou... *op. cit.*

(5) عبد الكريم الفيلالي، **التاريخ السياسي للمغرب العربي الكبير**، الجزء السابع ص. 170.

(6) طبع القليل منها، ومازال الكثير منها مخطوطا. راجع المنوني، ج2، ص. 486-487-488.

(7) هو سيدي محمد العربي بن محمد الهاشمي الحسني العلوي المدغري، تولى مشيخة الطريقة الدرقاوية منذ سنة 1823 عقب وفاة الشيخ مولاي عبد الرحمان. وكانت ولادته سنة 1150 هـ، وعرف بعدائه للاحتلال الفرنسي مما أثار عليه نقمة السلطة المركزية، وكانت وفاته عام 1239هـ، ودفن بقصر كَاوز بواحة مدغرة وادي زيز– وللمزيد من التفاصيل يراجع:
– المنصوري، كباء العنبر... عن بلحسن محمد، نظرية المقاومة... ج3، ص. 397.
وكذلك :

- B. G. R. T 4e /3, *France-Maroc, Revue Mensuelle,* 1920, 3e année, n° 1, 15 juin 1920, p.72.
- Drague (G.), *Esquisse d'histoire religieuse du Maroc,* Paris 1951, p. 267.

(8) المنوني، ن.م.س.

• **شخصيته :**

لم يظهر من السبعي، طيلة حياته، أي طموح سياسي، و لم تكن حركته قائمة على فكرة المهدوية، كما روجت لذلك بعض الدراسات، وإنما ظل محافظاً على الظهور في صفة فقيه عالم ذي عقيدة متصوف، نزّاع إلى الجهاد. وازدادت مكانته رفعة، بجمعه بين صفات التواضع ونكران الذات وإظهار المسكنة[9]، وقدرته الخطابية البليغة التي أهّلته لاستدراج متطوعة كُثْر من قبائل يفلمانية وعطاوية وأطلسية[10]، مدعّماً بشبكة من فروع الطريقة الدرقاوية المبثوثة بكل أراضي الجنوب الشرقي- أنظر خريطة انتشار الزوايا الدرقاوية بالمنطقة ص 4 – والتي ساهمت في تبليغ رسالته الجهادية خاصة وأن السبعي ممن سابقوا زمنه لكبح وثيرة الاجتياح الفرنسي للمنطقة، وممن سارعوا إلى الجهر بالجهاد ونذروا حياتهم للتنقل بين ظهران القبائل الصحراوية والأطلسية يستنهض هممها لضمان انخراطها في الجهاد، ويحسّسها بما يتهدد البلاد من أخطار الاحتلال إلى حين وفاته بقصر آيت احمد وسليمان يوم الأحد 28 ذي القعدة 1335 هـ موافق 1916 م ومن تم نقل جثمانه إلى برج آيت الرامي بمجال آيت يوسي حيث دفن[11].

وفي أفق حشد تأييد واسع لحملته، سارع السبعي إلى قيادة حركة فكرية جهادية قائمة على دعوته إلى تعامل سلبي مع الفرنسيين من خلال مقاطعة البضائع الأجنبية التي أغرقت أسواق المنطقة وتسببت في كساد المنتجات المحلية والوطنية. ودعا إلى الامتناع عن ولوج الأسواق التي كانت تنعقد داخل المجالات القبلية التي أبدت استسلامها[12]، وتمنى أن يستغني الناس عن كل ما يرد من المتربول موثراً شظف

---

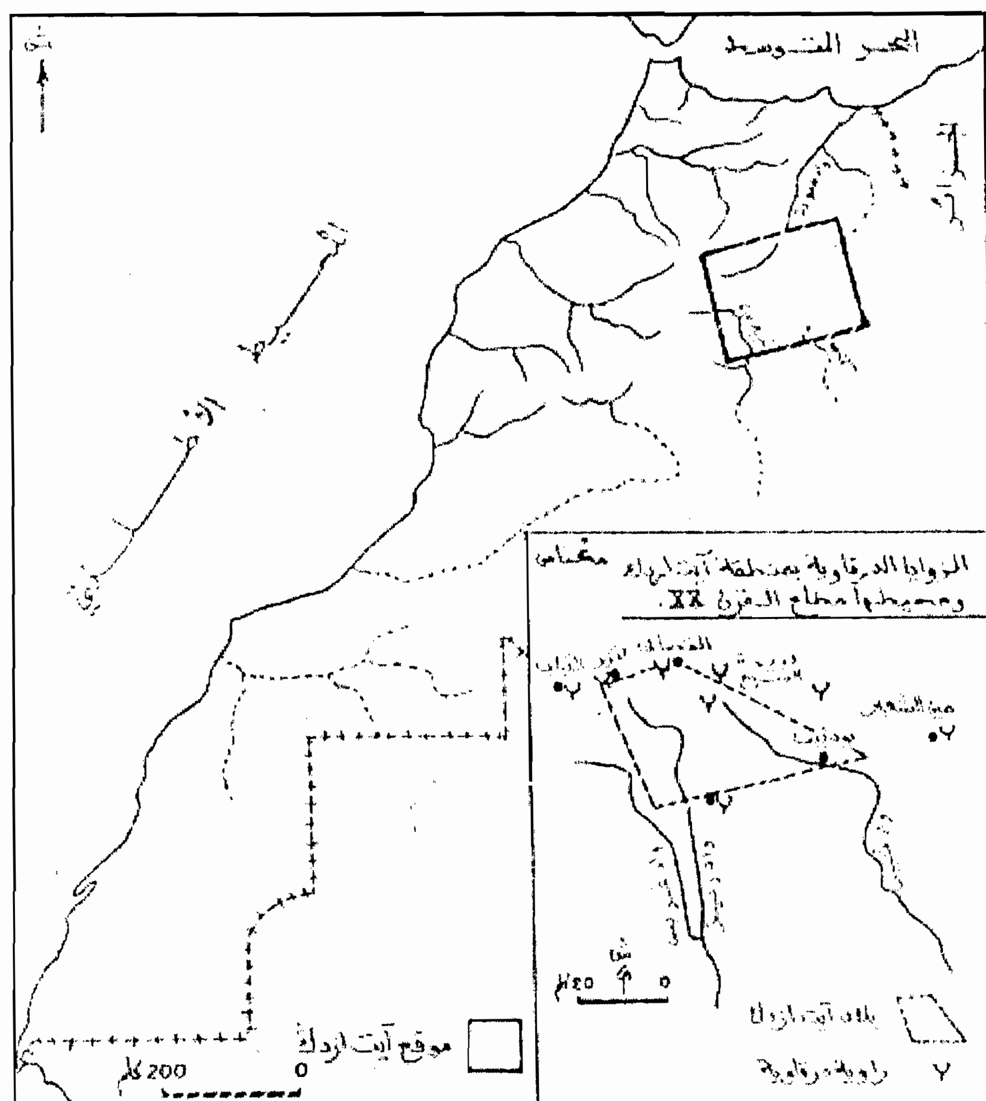
(9) **بلحسن محمد، نظرية المقاومة من خلال مخطوطة كباء العنبر من عظماء زيان وأطلس البربر،** ج3، ص. 402، **للمنصوري أحمد بن قاسم الزياني، دراسة تنظيرية مع توثيق النص،** أطروحة مرقونة، كلية الآداب، بني ملال، 1997.

(10) نفسه، ص401.

(11) المنصوري أحمد بن قاسم الزياني، **كباء العنبر من عظماء زيان وأطلس البربر،** مخطوطة، ج2، ص.25، عن محمد بلحسن، نظرية المقاومة...، ج3، ص. 400. وكذلك عبد الكريم الفيلالي، م.س، ص 172.

(12) المنوني محمد، ن. م. س، ص486.

شبكة الزوايا الدرقاوية بمنطقة
آيت ازدك ضمن أراضي الجنوب الشرقي



المصدر : خريطة مقتبسة وبتصرف من :

Ihraï (A.A.) - Colonisation et transformation d'une société : l'Outat (Haute Moulouya) 1981 - p. 78

العيش على الاستمتاع بما هو غير وطني ومبرزاً أهمية الإقبال على اقتناء كل ما هو وطني سيراً على درب الحرية وابتعاداً عن كل ضروب الخضوع والاستعباد[13].

وفي نفس الاتجاه، كشف عن الأضرار المرتبطة بعادة إقبال السكان عن المواد المستوردة من شاي وبن- على سبيل الاستئناس- موضحاً أن ذلك لا يخرج عن نطاق عادات ضارة، داعياً بإلحاح إلى الاستمساك عن طلبها، مخصصاً في أرجوزة من نظمه، سوء عادة تناول الشاي، هذا مطلعها :

شهـــوةٌ شُبهـــةٍ كثير الكُلَـــــف   ضُـــرٌّ بلا نفـــعٍ قبيـــحُ المَــأْلَفِ

وامتداداً لمساعي السبعي الجهادية، استحسنت جموع القبائل فكرة الشيخ الدرقاوي وأبدت استعدادها بالالتفاف حوله قائداً، والانخراط بتلقائية في الكفاح المسلح الذي يدعو إليه بإلحاح.

• قيادة السبعي لحركة جهادية في اتجاه عين الشعير:

استغل السبعي نفوذه الروحي، فبعث بوفود من زاويته إلى الزعامات القبلية الصحراوية والأطلسية، على عادة شيخه، يدعوها للانخراط في الحركة الجهادية التي يعتزم قيادتها في اتجاه واحة عين الشعير[14] حيث تتمركز طلائع جيوش الاحتلال في وضعية ترقب تنتظر توصلها بإشارة لتواصل زحفها صوب أراضي وادي كَير الأعلى، ومن تم الانتقال إلى وادي زيز وغريس وتطويق تافيلالت.

وفي سعي حثيث لحشد مزيد من متطوعة الحركة، أوفد السبعي نجله إلى قصور تافيلالت حيث التقى بالشيخ الحاج محمد بن الطايع، كبير بلاد تيزيمي، وحصل منه على وعد مشاركة قبيلته في الحركة المزمع إرسالها إلى أراضي عين الشعير[15]، فيما عهد لأحد المقربين إليه بتالسنت، للقيام بنفس المهمة في أوساط القبائل اليفلمانية،

(13) S. H. A. T.- 3H 588, Territoire de Bou Denib, Opérations 1915-1916, Rapport, p. 2.

(14) A. M. A. E. 239, Lyautey, commandant la Division d'Oran, au Gouverneur Général d'Algérie, Lettre n° 107, du 2 février 1908.

(15) Lyautey (H.), Lettre n° 175, du 24 février 1908, adressée au Gouverneur Général d'Algérie, in A. M.A. E. 239.

بينما رفضت جماعة زناكَة بواحات فكَيكَ التجاوب مع دعوة السبعي للجهاد، مما أثار شكوك هذا الأخير من موقف الزناكَين ووصفهم بالخذلان والنفاق[16].

وفي خطوة سبقت انطلاق الحركة نحو هدفها، تجمع المجاهدون عند التقاء وادي أنوال بوادي هيبر وذلك في الأسبوع الأخير من سنة 1908. ومن تم توجهت حشود الحركة قاصدة عين الشعير حيث لم تبلغ مقصدها إلا بعد مسيرة قرابة الشهرين، ذاق المقاتلون خلالها كل الإجهاد والنقص في التموين. وزاد من مصاعبهم، تردد قيادتهم ووقوعها في حيرة من أمرها بتوزع آراء المجاهدين حول من يرى أهمية مهاجمة مركز فكَيكَ ومن يفضل أن يكون الهجوم على بني ونيف وبين من يستحسن الهجوم على بشار...

أما سلطات الاحتلال، فقد حرصت على تتبع خطوات الحركة وإن ترددت بدورها بين أمرين، تجسد أولهما في التفكير في القيام بهجوم استباقي على جموع الحركة وقطع الطريق أمام كل طموحاتها. أما ثاني الأمرين فانبنى على موقف الانتظار والترقب مع إحكام تطويق سهل تملالت الذي يتوقع أن يكون مسرح أحداث معارك مرتقبة.

وفي ذات الوقت، شددت فرنسا من ضغطها على السلطان عبد الحفيظ في أفق حمله على التراجع عن سياسة الجهاد التي أوصلته إلى سدة الملك، وأن يصدر أوامره إلى الزعامات المحلية لوقف كل ما يمت إلى أعمال الجهاد[17].

ورغم ما كانت تشكو منه جموع الحركة، فإنها كانت قوية بحماس قائدها الذي لا ينضب، ومتماسكة بإيمان المجاهدين القوي، وبعدالة ما يدافعون عنه وباحتقارهم الشديد للموت وتمنيهم الاستشهاد في سبيل الحرية والاستقلال.

---

(16) بعث السبعي برسالة إلى جماعة زناكَة يدعو سكانها للانخراط في حركة الجهاد التي يقودها في اتجاه أراضي التخوم، بيد أن الجماعة آثرت عدم الخوض فيه، وفضلت النزوع إلى الحياد. أنظر نص الرسالتين بأرشيفات الحماية الفرنسية المنضوي في ربائد وزارة الخارجية والمصنفة تحت رمز : A.M.A.E 240.

(17) A. M. A. E. 240, Constations du Général Bailloud, Commandant du 19e corps d'armée, au Gouverneur Général d'Algérie, Lettre n° 92133, Alger le 30 mars 1908.

وتعكس الرسالة التي بعث بها السبعي إلى العقيد بيرون –Pierron حاكم بشار– جرأة المجاهدين وجسارتهم وعنادهم الذي لا يلين، إذ أن هذا الخطاب شكل تحدياً للمحتلين، وتضمن تهديدات في حالة تماديهم في احتلال أراضي التخوم، مما استبعد كل عامل للمفاجأة وأيقظ عيون وآذان المحتلين[18].

واستكمالا لمخطط الحركة، أصدر السبعي أوامره إلى مقاتليه المرابطين بمركز كُوريمة بدخول عين الشعير. ومنها بعث بسرايا إلى محيط الواحة في مهمة استطلاعية لمستجدات الوضع. وعلى إثرها، اشتبك المجاهدون بفرقة من قوات الاحتلال وتمكنوا من إبعادهم في اتجاه المرتفعات المحيطة بمنبسط تملالت، الأمر الذي حرك أحقاد سلطات الاستعمار ودفعِ بها إلى الخروج من موقف التردد في الترخيص لقواتها بالتقدم في اتجاه وادي كِير الأعلى مستظلة بحقها في مطاردة فلول قبائل التخوم المُخِلّة بأوفاق 1901 و1902 المبرمة بين فرنسا والمخزن[19].

لم ينته الأمر عند هذا الحد، ففي يوم 16 أبريل من سنة 1908، أجهزت جموع المجاهدين على حصن عسكري بموقع المنابهة[20] والمحسوب على قيادة مركز بشار، والذي لا يبعد عن مركز تلزازا إلا بقرابة 10 كيلومترات، حيث دارت إحدى أكثر المعارك دموية كما تُظهر الخسارات التي تمخضت عنها والتي حصرتها إحصائيات فرنسية في سقوط 123 إلى 190 شهيد في الطرف المغربي ومقتل 29 عسكرياً وجرح 98 آخرين في أوساط الغزاة، ناهيك عن فقدان الفرنسيين لعتاد حربي مهم وإن لم يفصح المصدر عن تحديد طبيعته ولا كميته مع اضطرارهم إلى إخلاء المعسكر[21] أنظر خريطة الغزو المرحلي لأراضي التخوم المغربية– الجزائرية (1900-1911) بالصفحة 7.

لقد كان بإمكان المغاربة تحقيق انتصار أوسع بوقعة المنابهة، إلا أنهم تقاعسوا عن مطاردة فلول المحتلين الهاربة مفوّتين على أنفسهم فرصة إجلائهم إلى ما بعد الحدود

---

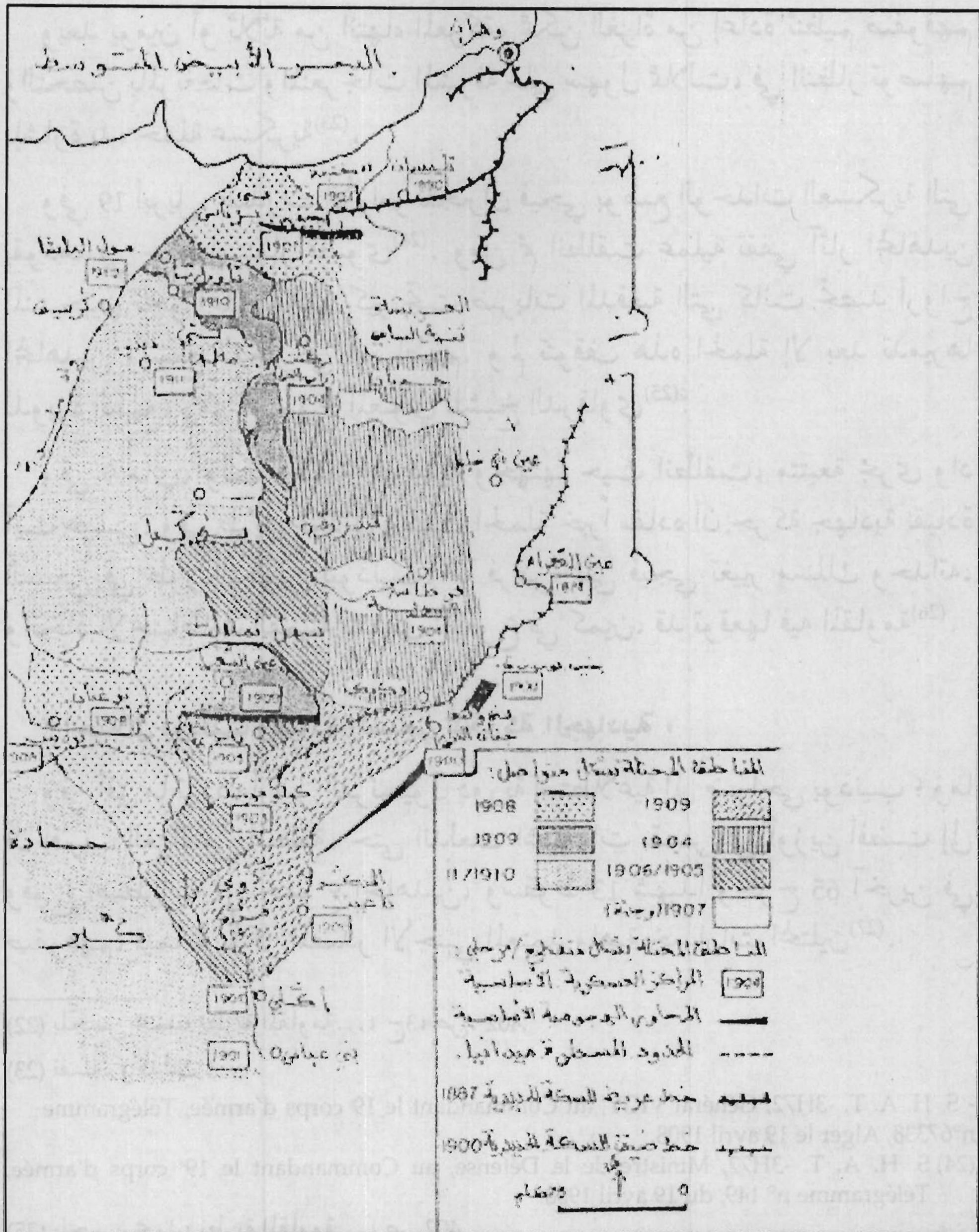
(18) A. M. A. E. 240, Ahmed As Sabii, à Pierron, commandant de Bechar, Lettre sans n° du 18 safar 1326/21 mars 1908.

(19) A. M. A. E. 240, Commandant du 19e corps d'armée, au Commandant d'Aïn Sefra, Télégramme n° 318, Alger le 2 avril 1908.

(20) A. M. A. E. 240, Général VIGY, Commandant du Cercle du Colomb Bechard, au Commandant du Territoire d'Aïn Sefra, Dépêché télégraphique n° 410 du 1 mai 1908.

(21) S. H. A. T.-3H72, Lieutenant Colonel Pierron, au Commandant du 19e corps d'armée, Télégramme n° 65745, du 6 avril 1908.

مراحل الغزو الفرنسي لأراضي التخوم المغربية
انطلاقا من الجزائر (1900-1911)



المصدر بتصرف

Nordman (Daniel) : Profils du Maghreb-Frontières, figures et territoires (XVIIIe-XXe siècles)
Publication de la faculté des Lettres et des Sciences Humaines - Rabat - n°58, 1996

المغربية مستفيدين من الوضعية الحرجة والمتذبذبة التي كانت عليها فرنسا وقتها بشأن المسألة المغربية[22].

وبعد يومين أو ثلاثة من انتهاء المعركة، تمكن الغزاة من إعادة تنظيم صفوفهم والتحصن بالمرتفعات والمنعرجات المشرفة على سهول تملالت، في انتظار توصلهم بإشارة بدء حملة عسكرية[23].

وفي 19 أبريل، صدرت الأوامر للجنرال فيجي بوضع الوحدات العسكرية التي يقودها في حالة استنفار قصوى[24]. ومن تم انطلقت عملية تقفي آثار المجاهدين المنسحبين نحو أعالي وادي كَير تحت ضربات المدفعية التي كانت تحصد أرواح المجاهدين وتشيع الدمار في أوساطهم. ولم تتوقف هذه الحملة إلا بعد تدميرها لدويرة السبع، رمز الشموخ المعنوي للشيخ الدرقاوي[25].

وفي 9 ماي، ولت الحملة الفرنسية وجهتها حيث انطلقت، متتبعة مجرى واد آيت عيسى. وفي طريق عودتها، تلقت الحملة خبراً مفاده أن حركة جهادية بقيادة السبعي في طور التكوين ببوذنيب، مما فرض على فيجي تغيير مسلك وحداته، واتخاذ الاحتياطات القمينة بتفادي الوقوع في كمين، قد توقعها فيه المقاومة[26].

• احتلال بوذنيب وقيادة السبعي للحركة الجهادية :

وفي أفق ما تردد، أرسل الفرنسيون دورية استطلاعية إلى ضواحي بوذنيب ؛ وما أن اقترب الغزاة من المنطقة، حتى اندلعت اشتباكات بقصر بني أوزين أفضت إلى وقوع اضطراب في جموع المجاهدين، وسقوط 13 شهيداً وجرح 65 آخرين في صفوفهم، فيما لم يذكر المصدر الأجنبي المعتمد ماهية خسارات المحتلين[27].

---

(22) بلحسن محمد، نظرية المقاومة...، ج3، ص. 402.

(23) نفسه، وكذلك :

- S. H. A. T. -3H72, Général VIGY, au Commandant le 19e corps d'armée, Télégramme n°67338, Alger le 19 avril 1908.

(24) S. H. A. T. -3H72, Ministre de la Défense, au Commandant le 19e corps d'armée, Télégramme n° 149, du 19 avril 1908.

(25) بلحسن محمد، نظرية المقاومة...، ص 402.

(26) A. M. A. E. 240, Le Gouverneur Général d'Algérie, au Président du Conseil, Télégramme n° 83143, Alger le 18 mai 1908.

(27) A. M. A. E. 240, Le Gouverneur Général d'Algérie, au Ministre des Affaires Etrangères, Télégramme n° 2438, Alger le 10 juin 1908.

وعلى ضوء هذا المستجد، أمر السبعي مقاتليه بالانسحاب من ميدان المعركة والتراجع غرباً في اتجاه واحات زيز الأوسط. وبذلك تأتى احتلال بوذنيب في متم شهر ماي، واتخِذ منذئذ قاعدة عسكرية محورية نُصِّبت بها قيادة مسؤولة عن تسيير العمليات الاحتلالية بكَير الأعلى، بتنسيق مع قيادة الشمال بوجدة وقيادة التخوم في مرحلة أولى[28].

ورغم سقوط بوذنيب، وحصد سلسلة من الانتكاسات، فإن قبائل المنطقة لم تيأس من أمرها و لم توقف مقاومتها، وإنما ظلت تعترض فرق الاحتلال حيثما ولت وجهتها، بل انهمكت قيادتها في مشاورات تنسيقية، واستقصاء الإجراءات الكفيلة بتجاوز الكبوة وردّ الاعتبار إلى أن اختمرت الفكرة حول ضرورة تنظيم الحركة الجهادية في مسعى لاستئصال الوجود الاستعماري في بوذنيب.

وما أن تسامع المغاربة بمعركة عين الشعير، حتى استشعرت قبائل تافيلالت وغيرها بخطورة الدور الريادي الذي ما انفكت القيادة العسكرية الفرنسية لأراضي التخوم المغربية– الجزائرية تضطلع به في توجيه طلائع الاحتلال للإجهاز على واحات المنطقة. لذلك، لم تجد مناصاً من ضرورة إعادة تجميع طاقاتها في إطار تكوين حركة جهادية، معلِّقة عليها كل الآمال في استعادة أمجاد الحرية والانعتاق من أغلال الحملة الكولونيالية الفرنسية المهددة للبلاد[29].

وفي هذا الأفق، عقدت القيادات القبلية والزعامات الدينية للمنطقة كل العزم والآمال لاجتثاث الوجود الاحتلالي ببوابة كَير الشرقية، حيث كثفت من ضغطها على نائب السلطان المولى رشيد لحمله على إشراك المخزن في الحملة التي يُعَدُّ لها بتافيلالت. غير أن هذا الأخير ربط الحسم في الموضوع بانتظار الردّ السلطاني الشيء الذي اعتبره الرأي العام المحلي تماطلا وتهرباً من المسؤولية.

ومن دون أن يعبأ الناس بالجواب الرسمي، تواصلت الاستعدادات القبلية العفوية لتنظيم الحركة، واستمر اندفاع جموع رجال القبائل المتطوعين إلى نقط التجمع في كل من تيزيمي والجرف ومدغرة وتولال...[30].

---

(28) Bernard (A.), Les Confins Algéro-marocains, Paris, 1911, pp. 161-162.

(29) A. M. A. E. 240, Le Gouverneur Général d'Algérie, au Ministre des Affaires Etrangères, Télégramme n° 2227, Alger le 20 juin 1908.

(30) A. M. A. E. 240, Le Gouverneur Général d'Algérie, au Ministre des Affaires Etrangères, Télégramme n° 1423, Alger le 28 juin 1908.

وفي غضون ذلك، ورد الرّدّ الحفيظي واقعياً مدعّماً وإن بشكل معنوي، ومختصراً في عبارة : «لا أستطيع شيئاً، إن استأنستم القدرة، فدافعوا عن بلادكم»[31].

في المقابل، كثفت إدارة الاحتلال من وسائل تتبعها للتطورات المناهضة للوجود الفرنسي بالمنطقة، واختارت العقيد فيش FESCH لمهمة القيادة العسكرية لكَير الأعلى لمواصفات إلمامه باللغة العربية، ومراكمته لطول تجربته في الاحتكاك بالأهالي وقدرته على ربط جسور التواصل بالسكان، مما سهل عملية التغلغل السلمية المرافقة للغزو العسكري المعتمد في احتواء أراضي تافيلالت.

وفي إطار استكمال تنظيمات حركة بوذنيب، تم تنصيب القيادات القبلية على رأس كل مجموعة من المجاهدين حيث جاء «أبو حفص عمر بن عبد الرحمن كبير زاوية أبي سالم العياشي متقدماً قبائل آيت يفلمان : من آيت عياش، وآيت ازدكَ، وآيت مرغاد وآيت حديدو وبعض آيت عطة، وقام الشريف مولاي أبا سيدي بن المصطفى بن الحنفي، بدوره كذلك في قبائل تافيلالت وشرفائها، وكذلك الشريف مولاي علي بن هاشم من أبو عام وآخرون من أعيان الشرفاء وأكابر الزوايا»[32].

ومن جهات مغربية أخرى، التحق بالحركة متطوعة من مجاهدي قبائل آيت ابراهيم وبني مكَيلد وآيت سخمان وآيت يحيى وبني مطير...[33]. ورغم تقديرات الحركة المتباينة، فقد حددها العقيد فيش بين 15 ألف و25 ألف من المقاتلين[34].

وبعد أن اجتمعت القبائل الكثيرة في بوذنيب برؤساء قبائلها وقوادها وشرفائها، خولت الرياسة الكبرى لمولاي أحمد ولحسن السبعي اعتباراً لما توفر فيه من مواصفات ومؤهلات لم تجتمع في غيره[35].

---

(31) S. H. A. T. -3H20, Le Gouverneur Général d'Algérie, au Président du Conseil, Télégramme n° 28/1, Paris le 8 août 1908.

(32) بلحسن محمد، نظرية المقاومة...، ج3، ص. 402.

(33) Le Chartier (Cap.), «La Colonne du Haut Guir en septembre», Revue d'histoire, n° 95, septembre, p. 366.

(34) A. M. A. E. 241, Le Gouverneur Général d(Algérie, au Ministre des Affaires Etrangères, Télégramme n° 3023, Alger le 27 août 1908.

(35) بلحسن محمد، نظرية المقاومة...، ج3، ص. 402.

ومراعاة لأهمية مركزي بوعنان وبوذنيب في تدبير الوضع الاحتلالي بوادي كَير، سارع رجال من المقاومة إلى قطع الأسلاك الهاتفية الرابطة بين الحصنين المنيعين، فيما ردّ الغزاة بأعمال مستفزّة لحشود الحركة[36]، اضطرت قياداتها إلى مكاتبة العقيد فيش يوم 29 غشت وتحميله عواقب سوء معاملة سكان أراضي التخوم التي أبدت استسلامها، وضمّنوا الخطاب أشكال وضروب التهديد والوعيد إن لم تبادر قوات الاحتلال إلى إخلاء الواحات المحتلة. وإمعاناً في التحدي، دُعي الغزاة للخروج من تحصيناتهم لنزال الشجعان في الوقت والمكان اللذين يحددونه.

أمام إصرار المجاهدين على ملاقاة المحتلين، تدخل عدي نْمَامَا[37] -أحد مخبري الفرنسيين- للتنبيه على استحالة اعتراض جيوش لا قبل لهم بها عدة وعتاداً.

وفي ظل هذا العناد، أوعزت قيادة الحركة لفصيل من المجاهدين بشن هجمة خاطفة على جانب من التحصينات الدفاعية الفرنسية حيث ردّ الغزاة بفتح هدير المدفعية من على نحو كيلومترين، أرغمت المقاومين على إسكات طلقات بنادقهم العتيقة[38]، وإن لم ييأسوا من البحث عن منفذ يُمكّنهم من اختراق التحصينات والوصول إلى قلب الثكنة العسكرية، لذلك ولى المقاتلون وجهتهم جنوباً، حيث نجحوا في التسلل عبر غابة قصر بوذنيب[39]. ومن ثمة اندلعت الاشتباكات في فاتح شتنبر، واستغرقت أسبوعاً كاملا، وإن اتخذت طابعاً متقطعاً مع تباين حدتها من وقت لآخر، اضطر معها العقيد فيش استدعاء تعزيزات عسكرية من بوعنان بقيادة العقيد أليكس Alix.

كان من تداعيات هذه المعارك، أن حصدت مدفعية المجاهدين حصد الهشيم، فقد قدر مصدر أجنبي حصيلة الخسائر البشرية في سقوط 500 شهيد في أوساط المغاربة، فيما قتل 19 عسكرياً فرنسياً وجُرح 101 آخر[40].

---

(36) A. M. A. E. 241, Le Gouverneur Général d'Algérie, au Ministre des Affaires Etrangères, Télégramme n° 3077, Alger le 1er septembre 1908.

(37) عبد الله تزلي، **الاحتلال الفرنسي لمنطقة آيت ازدكَ وآثاره العامة (1930-1908)**، أطروحة جامعية لنيل الدكتوراه في التاريخ، كلية الآداب، ظهر المهراز، فاس، 2002، ص. 100.

(38) A. M. A. E. 241, Le Gouverneur Général d'Algérie, au Ministre des Affaires Etrangères, Télégramme n° 60482, Alger le 5 septembre 1908.

(39) A. M. A. E. 241, Le Gouverneur Général d'Algérie, au Ministre des Affaires Etrangères, Télégramme n° 58241, Alger le 2 septembre 1908.

(40) Bernard (A.), op. cit. p. 162.

و لم يتوقف نزيف معارك بوذنيب عند هذا الحد، فقد تعقب كل من العقيد فيش وأليكس فلول المجاهدين المنسحبة في حملة مطاردة في اتجاه واحة الرتب غرباً وأعالي كَير شمالا. كما تعرضت جماعات القصور، أثناء هذه الحملة لإجراءات تضييقية من تجريد السكان مما تبقى لديهم من سلاح، وتغريمهم على اعتبارهم مساهمين في مناهضة الاحتلال، وحُملت الجماعات السلالية على الانتقال إلى بوذنيب لتقديم فروض الولاء والطاعة...

هذا، وإن الأعمال الجهادية التي نادى بها السبعي وعمل في ظلها لا تنحصر وحسب في الحملتين الموجهتين لاستئصال الوجود الاحتلالي بضواحي عين الشعير وبوذنيب، بل ظل السبعي وفياً لمبدإ مناهضة الغزاة الفرنسيين حيث شارك في هجوم المقاومة الذي استهدف مركز كَرامة سنة 1914. كما شارك في أحداث فاس الدامية، وقبل ذلك في حملات الجهاد بواحات التخوم المغربية منذ أواخر القرن التاسع عشر.

خـــاتمة :

إن النبش في شخصية السبعي يختزل عملا متواضعاً بما يكشفه من جوانب منسية من تاريخ منطقة مازالت تعد من المناطق المغربية التي يجثم عليها النسيان ويكتنف الغموض كثيراً من واقعها التاريخي، مما يبقي الكثير من إسهامات المنطقة ومشاركة رجالاتها في صنع البلاد مجهولة.

لذلك، نعتبر هذا العرض المتواضع مجرد إشارات إخبارية ليس إلا. لكنه قد يسهم في كشف جزئي عن بعض الأرصدة البيبليوغرافية والوثائقية غير المنشورة.

ويكفي السبعي فخراً كون الحركة الجهادية التي قادها بأراضي التخوم تعكس أروع صور عفوية التلاحم القبلي، وتجسد مدى استعداد سكان المنطقة للتضحية بكل جسارة وعناد واحتقار للموت وإنْ في ظل عدم تكافؤ إمكانات طرفي النزاع واختلال بيّن لموازين القوى.

وإذا لم يكن السبعي قد حقق كل الطموحات المعلقة على حركة الجهاد التي قادها، فإنه نجح– على الأقل– في وقف سرعة وثيرة تقدم أرتال الاحتلال بوادي

كَير في اتجاه تافيلالت التي لم تستسلم إلا ما بعد 1932 رغم وفاته قبل هذا التاريخ. كما نجح السبعي، ومن حوله قبائل المنطقة الجنوبية الشرقية، في تفنيد ادّعاء دهاقنة السياسة الكولونيالية الذين طالما روجوا أن غزو أراضي تافيلالت لن يعدو أن يكون «نزهة عسكرية» ليس إلا. بل أربك السبعي، ومن خلفه أبناء قبائل جهة الجنوب الشرقي وقبائل الأطلس، حسابات قادة الاحتلال وأجبرهم على البحث عن خطط غزو بديلة عقب كل انتكاسة من مراحل الغزو الفرنسي.

وفوق كل هذا، فقد كان للحملات الجهادية التي تزعمها السبعي، أصداء تجاوزت حدود إقليم تافيلالت إلى أوساط قبائل الأطلس المتوسط حيث تأججت أعمال المقاومة بتادلة بقيادة موحا وسعيد الويراوي، وفي بلاد زيان بزعامة موحا وحمو، وبأراضي الجنوب بسوس تحت إمراة الشيخ ماء العينين ومن بعده أحمد الهيبة...